الفصل الحادى عشر

حرية الصحافة فى الولايات المتحدة

صعوبة تقييد حرية الصحافة - الأسباب الخاصة التى أدت ببعض الأمم إلى الاعتزاز بهذه الحرية - حرية الصحافة نتيجة لازمة لسيادة الشعب بالشكل الذى يفهمها به الأمريكيون - لغة الصحافة الدورية عنيفة فى الولايات المتحدة - للصحافة الدورية نزعات خاصة ، تتجلى فى الولايات المتحدة - آراء الأمريكيين فى كبح تعسف الصحافة ودسائسها عن طريق القضاء - لم كانت الصحافة فى فرنسا أقوى منها فى أمريكا ؟

لا يقتصر تأثير حرية الصحافة على الآراء السياسية وحدها ، بل يمتد إلى جميع آراء الناس ، فيعدل عاداتهم وقوانينهم . وسأحاول فى موضع آخر من الكتاب أن أبين مدى مالحرية الصحافة من تأثير فى الولايات المتحدة ، وأبين الاتجاه الذى وجهت إليه الأفكار ، والصبغة التى أفاضها على أخلاق الأمريكيين الإنجليز ، وعلى مشاعرهم ، أما الآن فحسبى أن أدرس النتائج التى أدت إليها حرية الصحافة فى علم السياسة .

لست أخفى عن القارىء أنى لا أكن لحرية الصحافة هذا الحب العظيم الكامل الذى تستثيره فينا عادة تلك الأمور السامية بطبيعتها كل السمو . ولكننى أقابل حرية الصحافة من حيث ما تمنعه عن الناس من شرور أكثر مما تكفله لهم من فوائد[1] .

ليت أحداً يستطيع أن يبين لنا موقفاً وسطاً بين استقلال الرأى العام استقلالاً تاماً ، وبين عبوديته الكاملة ، فلعلى أميل إلى قبوله . ولكن الصعوبة هى الوصول إلى هذا الموقف الوسط . فإن كنت ترمى إلى كبح استبداد الصحافة ، وتلزمها ضرورة مراعاة اللياقة فى اللغة التى تستخدمها ، فما عليك إلا أن تحاكم المذنب أولاً أمام هيئة المحلفين . فإن هم برءوا ساحته أصبح رأى الفرد هنا عندئذ رأى الشعب بأسره .. وبذلك نكون قد عملنا أكثر مما ينبغى من جهة وأقل مما ينبغى من جهة أخرى . ولكن إن أنت سرت إلى أبعد من هذا ، وأقمت عليه قضية أمام المحكمة (فحتى هنا يجب أن يسمع القضاة القضية قبل الفصل فيها) أصبحت المبادىء نفسها التى لم يجرؤ أحد من الكتاب أن يعترف بها ، تعرض كلها سافرة فى أثناء الدفاع دون خوف من عقاب . وما كان يلمح إليه تلميحاً مبهما فى نشرة واحدة صار يكرر فى عدد كبير من المنشورات . ليست اللغة سوى التعبير الخارجى عن فكرة - وإن شئت قلت إنها لا تعدو أن تكون تجسيماً للفكرة ؛ ولكنها مع ذلك ليست

(١) قد يكون ذلك من رجع الصدى لتلك المعارك القلمية الشهيرة التى قامت بشأن حرية الصحافة فى عهد عودة الملكية فى فرنسا وكان بطلها رويه كلار .

بالفكرة ذاتها . وقد تصدر أحكامها على الجسم ، أما المعنى وروح المؤلف فأدق وألطف من أن تمسهما سلطة المحاكم بسوء . لقد عملت إذن أكثر مما ينبغى ، فلا سبيل للنكوص ، وأقل ما ينبغى لإدراك غايتك . فلايسعك إلا أن تتابع سيرك وتقرر فرض الرقابة على المطبوعات ، ومع ذلك فلاننسى أن الخطيب السياسى مازال حراً يقول ويسمع ، وبذلك لايكون غرضك قد تحقق ، لأنك لم تعمل شيئاً سوى أن زدت الأمر سوءاً على سوئه . فليس الفكر كالقوة المادية التى تنمو وتزداد بزيادة عدد عواملها المؤثرة فيها ؛ والمؤلفون لايعدُّون كما تعد الجنود فى الجيش ، بل الأمر على النقيض من ذلك . فكثيراً ما تزداد قوة الفكرة زيادة كبيرة بحسب قلة عدد الرجال الذين يعبرون عنها . فعبارات رجل واحد راجح العقل ، إذا ما وجهت إلى استثارة انفعالات جماعة ألقت إليه أسماعها ، كان لها من القوة أكثر مما يتشدق به ألف خطيب . وإن سمح للناس أن يتكلموا بحرية فى مكان واحد ، فالنتيجة واحدة ، كما لو سمح بحرية الكلام فى كل قرية . فيجب عليك أن تقضى على حرية الكلام إذن كما قضيت على حرية النشر والصحافة ، وعندئذ لاتكون قد ألجمت كل لسان ، وأجبرت كل إنسان على التزام الصمت ، ولكن غرضك الذى رميت إليه إنما كان أن تمنع سوء استخدام الحرية ؛ فإذا بك تخضع عند قدمى مستبد طاغية . لقد اندفعت فى الحرية والاستقلال ، إلى التطرف فى العبودية ، من غير أن تصادف فى طريقك موقفاً واحداً ركيناً تستطيع أن تقف عنده .

وثمة دول معينة لديها أسباب خاصة للاعتزاز بحرية الصحافة غير تلك الأسباب العامة التى أشرت إليها توا . ففى بعض البلاد التى تقول عن نفسها أنها حرة يخالف كل موظف من موظفى الحكومة القوانين واللوائح دون أن يخشى عقاباً ، لأن الدستور الاتحادى (الفدرالى) لايخول للمظلومين حق الشكوى إلى المحاكم ، وفى هذه الحالة لاتكون حرية الصحافة عند هذه الشعوب من ضمانات الحرية والأمن للمواطنين فحسب ، بل تكون ضمانهم الوحيد فى كل ذلك . فإن اقترح حكام هذه الأمم إلغاء حرية الصحافة ، ردت الأمة كلها على ذلك بقولها : أعطونا إذن حق إقامة الدعوى عليكم ، وعلى ما ترتكبونه من جرائم ، أمام المحاكم العادية ، وعندئذ قد نفكر فى عدم الالتجاء إلى محكمة الرأى العام .

هذا وليست الرقابة على الصحف خطيرة فحسب فى البلاد التى يغلب عليها الأخذ بمبدأ سيادة الشعب ، بل هى تكون سخيفة أيضاً كل السخف . فعندما يكون حق كل مواطن فى الاشتراك فى حكومة بلاده أمراً معترفاً به ، يجب أن نفترض فيه القدرة على اختيار ما يجب اختياره من الآراء التى تشغل بال معاصريه ، وأن نفترض فيه أنه يستطيع أن يقدر الحقائق المختلفة التى يمكن أن تستنبط منها نتائج ، حق قدرها . فسيادة الشعب ، وحرية الصحافة ، يصح أن تعتبرا إذن أمرين متلازمين ، كما أن الرقابة على الصحف وحق الانتخاب العام شيئان متضادان تضاداً لايرجى معه أى توفيق بينهما ، ولايمكن الاحتفاظ

بهما فى مؤسسات الشعب نفسه . فليس من بين الاثنى عشر مليوناً من الناس الذين يعيشون فى الولايات المتحدة رجل واحد تجرأ على أن يقترح فرض أى قيد على الصحافة . وأول صحيفة[1] وقع عليها نظرى عند وصولى إلى أمريكا اشتملت على المقال الآتى :

« كانت لغة جاكسون (الرئيس) فى هذه المسألة كلها لغة مستبد طاغية لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلاً . فليس يشغله شىء غير المحافظة على سلطته . فالطموح جريمته ، ولسوف يكون عقابه كذلك ؛ والدس طبيعته ولسوف يقضى على كل ألاعيبه ويجرده من قوته ، إنه يحكم بوسائل الرشوة والفساد ، ولابد من أن يجر عليه مسلكه البعيد عن الأخلاق القويمة ، العار والارتباك . إن سلوكه فى الميدان السياسى لأشبه بسلوك المقامر . لقد نجح الرجل فى حينه ، ولكن ساعة الحساب قريبة ، ولسوف يضطر إلى أن يرد ما اكتسب ، ويلقى أوراقه الزائفة ، ويقضى بقية عمره فى عزلة عن الناس ، فيتيح له الفراغ ما يمكنه من أن يعلن جنونه كما يشاء ويهوى . إن الندم فضيلة ، ومن المحتمل أن يظل قلبه خلوا منها إلى الأبد » .

يرى كثيرون فى فرنسا أن عنف الصحافة فيها يرجع أصلا إلى عدم استقرار الحالة الاجتماعية ، كما يرجع إلى أهواء الفرنسيين السياسية ، وإلى ذلك الشعور العام بالقلق الذى غلب على نفوس الناس إثر ذلك كله ، حتى خيل لهم أن الصحافة ستتخلى عن عنفها الذى عرفت به عندما يحصل المجتمع على قسط معين من الهدوء واستقرار النظام . أما من ناحيتى فأوثر أن أرجع هذه الأسباب إلى تلك السيطرة غير العادية التى تمارسها الصحافة على الأمة ، ولا يدور بخلدى أن لهذه الأسباب نفوذاً كبيراً على لغة الصحافة والأساليب التى تصطنعها فى التعبير . فللصحافة الدورية ، فى نظرى ، أهواء وميول خاصة بها ومستقلة عن الظروف التى تحيط بها . هذا وإن الأحوال الحاضرة فى أمريكا لتؤيد هذا الرأى .

ولعل أمريكا هى البلد الوحيد الآن فى العالم كله الذى فيه أقل ما يمكن من بذور الثورة ، ولكن الصحافة فيها ليست مع ذلك أقل هدماً وتدميراً من حيث مبادئها ، منها فى فرنسا . ذلك إلى أنها عنيفة نفس العنف من أجل أن يكون لديها ما عند صحافة فرنسا من الأساليب التى تثير الغضب من أجل الكرامة . فهى فى أمريكا ، كما هى فى فرنسا ، قوة عجيبة وخليط غريب من الخير والشر ، ومع ذلك لا تستطيع الحرية أن تحيا بدونها ، ولا يتسنى لها صيانة النظام العام كله وهى ضدها . وليس شك فى أن قوتها فى فرنسا أعظم منها فى الولايات المتحدة التى يندر أن نسمع فيها بشىء اسمه قضية ترفع ضدها . ويرجع هذا إلى سبب بسيط كل البساطة . فبعد أن سلم الأمريكيون بمبدأ سيادة الشعب شرعوا يطبقونه بكل إخلاص . فهم لم يقصدوا أبداً أن يخلقوا من عناصر تتغير كل يوم وتتبدل ، مؤسسات تعيش إلى الأبد . ومن ثم فلا جريمة إذن هى فى مهاجمة القوانين الحاضرة ، مادام لا توجد أية نية لانتهاك حرماتها انتهاكاً عنيفاً . ومن رأيهم كذلك أن المحاكم الحاضرة تعجز عن وقف تعسف الصحافة وسوء استخدام سلطتها . ولما كانت لطاقة اللغة البشرية

(١) صحيفة Gazette ؛ Vincenne . يشير بذلك إلى الشعبة التى اتسمت بها رياسة أندرو جاكسون .

وأساليب التحليل فيها تيسران لها دائماً أن تفلت من التحليل القانونى ، فقد صارت الجرائم التى من هذا القبيل تفلت من أيدى كل من يحاول القبض عليها . فهم يعتقدون أن التأثير الناجع فى الصحافة يستوجب قيام محكمة للنظام القائم ، وقادرة على التغلب على الرأى العام - محكمة تستطيع أن تسير إجراءاتها فى غير ضجة أو إعلان ، وتنطق بأحكامها وقراراتها من غير ذكر لدوافعها التى أدت إلى النطق بتلك الأحكام ؛ وتعاقب الكاتب على نيته أكثر مما تعاقبه على لغته وألفاظه . فمن يستطيع إيجاد محكمة من هذا القبيل ويعمل على صيانتها والمحافظة عليها كان قد ضيع وقته سدى فى مقاضاة حرية الصحافة . ذلك لأنه سيكون السيد المطلق فى الجماعة كلها ، وحراً فى التخلص من المؤلفين ، حريته فى التخلص مما يكتبون . فليس فى هذه المسألة إذن وسط بين العبودية والاستبتار . فكى يستطيع المرء أن يستمتع بما تحققه حرية الصحافة من مزايا عظيمة بالغة القيمة يجب عليه أن يرضى بما تخلفه من مساوىء محتومة . أما من يأمل أن يستمتع بالمزايا ويعفى من الشرور فقد يقع فى وهم من تلك الأوهام التى تضلل الأمم عادة فى أوقات مرضها عندما تحاول بعد أن عانت من متاعب الطوائف ، وبعد أن أنهكها ما بذلته من جهود ، أن تجعل الآراء المعادية والمبادىء المخالفة لمبادئها تعيش جنباً لجنب فى أرض واحدة .

هذا ويعزى تأثير الصحف الأمريكية الضئيل إلى عدة أسباب ، نذكر لك بعضها :

أن حرية الكتابة مثل أية حرية أخرى ، تكون بالغة الأثر كلما كانت جديدة كل الجدة على شعب لم يعتدمن قبل أن يستمع إلى شئون الدولة تناقش أمامه . ومن ثم كانت ثقته بأول خطيب يتقدم للكلام . هذا ، وقد استمتع الأمريكيون الإنجليز بهذه الحرية منذ أن قامت المستعمرات فى أمريكا . وزيادة على ذلك فالصحافة لا تستطيع أن تخلق فى الناس انفعالات جديدة مهما بلغت مهارتها فى استثارة ما قد يكون موجوداً منها فعلاً . فالحياة السياسية فى أمريكا نشيطة ومنوعة ، بل ومستثارة كذلك ، ولكنها يندر أن تتأثر تلك الانفعالات العميقة التى لا تستثار إلا إذا كانت ثم مصالح تتأثر بها تأثيراً سيئاً . ولا يخفى أن الشئون المادية فى أمريكا ناجحة كل النجاح . فحسبنا نظرة نلقيها على صحيفتين إحداهما فرنسية والأخرى أمريكية حتى نقف على ما بين هاتين الأمتين من فروق فى هذه المسألة . فالمساحة التى تخصصها جرائد فرنسا للإعلانات التجارية ضيقة جداً ؛ والأخبار فيها قليلة ، على حين نجد الجزء الأكبر من الصحيفة تشغله المسائل السياسية اليومية . أما فى أمريكا فالأمر على النقيض من ذلك ؛ فنرى ثلاثة أرباع الصحيفة الضخمة حافلة بالإعلانات والباقى بالأخبار السياسية ، أو القصص أو الأحاديث التافهة ، ولا يجد القارىء إلا أحياناً ركناً مخصصاً للمناقشات العنيفة من ذلك النوع الذى يعرضه الصحفيون الفرنسيون على قرائهم كل يوم .

دلتنا الملاحظة ، وعرفنا بالنظر ، أن تأثير قوة ما يزداد كلما اتخذ توجيهها ، واتخذت إدارتها ، شكلاً مركزاً . وقد عرف هذا الأمر بالفطرة حتى أصغر المستبدين وأهونهم شأناً .

ففى فرنسا تجمع الصحافة بين نوعين من المركزية حتى لتكاد تتركز قوتها كلها فى بقعة واحدة وفى أيد واحدة ؛ فأعضاؤها ليسوا كثيرين . ولا غرو إن كان تأثير مثل هذه الصحافة العامة فى أمة يغلب عليها التشكك ، بالغاً . فمن مصلحة الحكومة أن تعقد هدنة مؤقتة معها : أما مقاومتها باستمرار فشىء من الصعوبة بمكان .

لايوجد نوع من هذين النوعين من المركزية فى أمريكا . فليس للولايات المتحدة عاصمة ، وذكاء الشعب وقوته مبعثران فى شتى أرجاء البلاد المترامية الأطراف ، وبدلاً من أن تشع كلها من بؤرة مشتركة ، يعترض بعضها بعضاً فى كل اتجاه . ولم ينشىء الأمريكيون مركزاً معيناً تصدر عنه إدارة الشئون المختلفة العامة . فهذا الفرق ينجم من الأحوال المحلية لامن القوة البشرية ، ويرجع إلى قوانين الاتحاد ؛ فلا تراخيص تمنح ولا ضمانات تطلب من المحررين كما هو الشأن فى فرنسا ، ولا ضرائب تمغة تدفع ، كما هى الحال فى كل من إنجلترا وفرنسا ، فترتب على ذلك أن لاشىء أسهل من إنشاء جريدة فى أمريكا . وحسب المرء عدد قليل من المشتركين لسد نفقات الجريدة .

ومن ثم بلغ عدد المطبوعات الدورية وشبه الدورية فى أمريكا عدداً كبيراً يكاد العقل لايتصوره . ويعزو أوسع الأمريكيين ثقافة واستنارة ضآلة تأثير الصحافة عندهم إلى توزع قوتها وبعثرتها . فمن بديهيات العلوم السياسية المعروفة فى تلك البلاد أن الطريق الوحيد إلى تحييد أثر الصحافة العامة إنما هو الاستكثار منها .

ولست أدرى كيف أن حقيقة واضحة هذا الوضوح لم تسلم بها أوربا من قبل تسليما أكبر مما فعلت . نعم إنى أدرك السبب الذى دعا أولئك الأشخاص الذين يأملون فى إحداث انقلاب بطريق الصحافة أن يميلوا إلى حصر هذه الصحافة فى عدد قليل من الصحف القوية ؛ ولكن ما لايتصوره أحد أن أنصار الحالة القائمة الرسميين والمؤيدين الطبيعيين للقانون ، يحاولون أن يقللوا من نفوذ الصحافة عن طريق تركيز قوتها . ويبدو أن حكومات أوربا تعامل الصحافة بذلك النوع من المجاملة الذى كان الفرسان فى القديم يعاملون به خصومهم . فبعد أن عرفوا بالخبرة أن التركيز سلاح ماض ، عملوا على تزويد خصومهم به كى ينالوا مجداً أعظم من مصارعتهم والظفر بهم .

لاتكاد تخلو قرية فى أمريكا من صحيفة يومية خاصة بها . ومن الميسور أن ندرك أنه لانظام ولا الوحدة فى العمل يتسنى أن تقام بين عدد كبير من المتصارعين . فلا غرو إن كان كل واحد منهم يناضل وحده مستقلا بنفسه تحت علمه الخاص . ولا شك فى أن جميع الصحف السياسية التى فى الولايات المتحدة تقف كلها صفاً واحداً فى جانب الإدارة أو ضدها ، ولكنها تهاجمها أو تدافع عنها بالآلاف من شتى الطرق المختلفة . فالصحافة لاتستطيع أن تكون تلك الآراء القوية التى تجرف تياراتها العنيفة أمنع حاجز يقام فى سبيلها ؛ فأدى توزيع قوى الصحافة هذا إلى نتائج أخرى لاتقل شأناً عما أشرنا إليه قبل .

فالتسهيلات التى يجدها كل من يشاء أن يخرج صحيفة جديدة ، أدت إلى إنتاج مئات من الصحف ، إلا أن المنافسة بينها حالت دون الحصول على أرباح وفيرة ، فقلما يرضى أحد من ذوى المقدرة والكفاية أن يعمل فى الصحافة ، فبلغ عدد الصحف رقماً كبيراً . وحتى لو كانت هذه الصحافة مصدر ثراء عظيم لما تيسر إيجاد الرجال الأكفاء الذين يديرونها كلها خير إدارة . ومن ثم كان الصحفيون ، فى الولايات المتحدة ، فى مركز متواضع كل التواضع ، وحظهم من التعليم قليل ، وفى عقليتهم جفاء وغلظة . إن إرادة الأغلبية هى أعم القوانين جميعها ، وتخلق عادات معينة يتحتم على كل فرد أن يأخذ بها . وجملة هذه العادات المشتركة هى ما يسمونه « بروح الجماعة » فى كل مهنة أو حرفة . فثَمَّ روح جماعة للمحامين ، وأخرى للقضاة ، وهكذا . وتتجلى روح الجماعة هذه عند الصحفيين الفرنسيين فى شكل عنيف ، ولكنها كثيراً ما تكون عند مناقشة مصالح الدولة الكبرى معبرة وفصيحة ، سامية . وما يستثنى من ذلك فى الكتابة قليل وعارض . فسمات الصحفى الأمريكى تتجلى فى اتجاهه الجاف السافر إلى مشاعر وانفعالات قرائه ، فتراه يغفل كل المبادىء السامية ويهاجم الأفراد فى أعراضهم ويتعقبهم فى منازلهم ، وفى حياتهم الخاصة ، يفضح رذائلهم ويكشف عن نقاط ضعفهم .

وليس شىء أدعى للأسف والرثاء من سوء استخدام قوة التفكير . هذا ، وستتاح لنا الفرصة فيما بعد لبيان سوء تأثير الصحافة فى أذواق الشعب الأمريكى وفى أخلاقه . أما الآن فموضوعنا مقصور على عالم السياسة وحده . هذا ، وليس من ينكر أن النتائج السياسية التى تترتب على الإسراف الشديد فى حرية الصحافة ، تتجه بطريقة غير مباشرة إلى المحافظة على النظام العام . فالأفراد الذين يحترمهم المواطنون احتراماً عظيماً يتحرجون من الكتابة فى الصحف السيارة ، وبذلك يحرمون أنفسهم أقوى أداة يستطيعون استخدامها لإثارة مشاعر الجماهير لما فيه مصلحتهم هم .

وليس لآراء المحررين الشخصية أى وزن فى نظر الجمهور . فالناس لا ينتظرون من الصحيفة إلا أن تزودهم بالحقائق والوقائع ، ولا يستطيع المحرر أن يسهم فى تكوين آراء الجمهور الخاصة إلا عن طريق تغيير هذه الوقائع وتلك الحقائق أو تحريفها عن مواضعها .

فعلى الرغم من اقتصار الصحافة فى أمريكا على هذه المصادر فأثرها فيها عظيم . فهى التى تشيع الحياة السياسية فى كل أرجاء هذا الإقليم المترامى الأطراف ؛ وعيونها يقظة مفتوحة دائماً لإدراك ما عساه يكون كامناً وراء الخطط السياسية من دوافع خفية . وتدعو زعماء الأحزاب المختلفة ، كلاّ بدوره ، إلى الوقوف أمام الرأى العام ، وتكتل مصالح المجتمع حول مبادىء معينة ، وترسم لكل حزب عقيدته ومبادئه . وذلك لأنها تتيح وسيلة اتصال لأولئك الذين يخاطب بعضهم بعضاً ويسمع بعضهم بعضاً دون أن يتصلوا أبدا اتصالاً مباشراً . فإذا ما سلك عدد من الصحف مسلكاً واحداً معيناً صار نفوذها

على المدى البعيد نفوذاً قوياً كل القوة لا قبل لأحد بمقاومته . وإذا ما ظل الرأى العام يتلقى الهجمات باستمرار من ناحية واحدة معينة ، كان لابد أن ينتهى به الأمر إلى التسليم لمهاجميه . فكل صحيفة على حدة من صحف الولايات المتحدة لا يمكن أن يكون لها سوى أثر ضئيل ، على حين أن قوة الصحافة الدورية مجتمعة لا يفوقها غير قوة الشعب نفسه .

كثيراً ما تكون الآراء التى قامت فى الولايات المتحدة بتأثير حرية الصحافة أرسخ من الآراء التى تكونت فى بلاد أخرى بإشراف رقيب المطبوعات

تدعو الديمقراطية فى الولايات المتحدة رجالا جدداً باستمرار ليتولوا إدارة الشئون العامة فى البلاد . ومن ثم ندر أن تحتفظ الإدارة فيها بأى استمرار أو نظام فيما تسير عليه من إجراءات . أما مبادىء الحكم العامة فأثبت من ذلك وأبقى . وكذلك الآراء السياسية التى تنظم شئون الجماعة . فهى الأخرى أثبت وأدوم فى الولايات المتحدة منها فى بلاد كثيرة . فإذا ما اعتنق الأمريكيون فكرة ما ، سواء قامت على أساس وطيد ، أو كانت لا أساس لها ، صعب اقتلاعها من عقولهم كل الصعوبة . وقد لوحظ مثل هذا التشبث الشديد بالآراء فى القرن الثامن عشر فى بلاد الإنجليز حيث كانت حرية الفكر واسعة فيها ، كان فيها كذلك تعصب شديد أكثر وأشد مما كان فى أى بلد آخر فى أوروبا - وفى رأيى أن هذا يرجع إلى سبب قد يبدو لأول وهلة أنه يتجه وجهة مضادة . وما هذا السبب غير حرية الصحافة . وفى الأمم التى قامت فيها حرية الصحافة هذه ترى الناس يتشبثون بآرائهم عن كبرياء بقدر ما يستمسكون بها عن إيمان واعتقاد . فهم يستمسكون بها لأنهم اعتقدوا أنها آراء عادلة ، ولأنهم اختاروها من تلقاء أنفسهم اختياراً حراً ؛ وهم يستمسكون بها ، لا لأنها اعتقادات صادقة فحسب ، بل ولأنها اعتقاداتهم هم . وهناك أسباب كثيرة أخرى تؤدى إلى هذا الاتجاه نفسه .

قال كاتب عبقرى إن الجهل يجثم دائماً عند طرفى المعرفة ، ولعله أصدق من ذلك أن نقول إن الاعتقادات الراسخة لا توجد عند الطرفين ، أما الشك ففى الوسط . والحق أننا نستطيع أن ننظر إلى العقل البشرى من حيث أحوال ثلاثة متمايزة ، وكثيراً ما تتوالى الواحدة منها بعد الأخرى .

فقد يعتقد المرء منا بشىء اعتقاداً راسخاً من جراء تقبله فكرة أو قضية ما ، من غير فحص ؛ ثم تساوره الشكوك عندما تواجهه اعتراضات عليها ، إلا أنه كثيراً ما يفلح فى تهدئة هذه الشكوك ، ثم يعود إلى معتقداته ذاتها من جديد وعندئذ ، لا تكون نظرته إلى الحقيقة هذه المرة غامضة ولا عابرة بل تتجلى له الحقيقة واضحة ، فيسير على هديها قدما .

فعندما تعمل حرية الصحافة عملها فى أقوام لا يزالون فى أولى هذه الحالات الثلاث ،

فإنها لا تقلقل فوراً عادتهم فى أن يعتقدوا ما يعتقدونه من غير فحص أو تحر ، ولكنها تغير كل يوم موضوعات معتقداتهم هذه غير المبنية على أى تفكير . ويظل العقل البشرى لا يميز سوى نقطة واحدة فى الوقت الواحد فى الأفق العقلى كله ، ومع ذلك فهى نقطة تتغير على الدوام . فهذا هو الوقت الذى تحدث فيه ثورة مباغتة أو انقلاب مفاجىء ، فويل لذلك الجيل الذى يختار أول ما يختار الأخذ بمبدأ حرية الصحافة فجأة !

ومع ذلك فما أسرع ما تنتهى سلسلة تلك الآراء المستحدثة ، ويأتى دور الخبرة الواقعية ، فيتبين للناس عندئذ أنهم مخدوعون . فلا غرو إن تورطوا فى الشكوك والريب وإساءة الظن بكل شىء . ولا يخفى أن معظم الناس سيظلون دائماً فى حالة من حالتين اثنتين : فإما أن يؤمنوا من غير أن يعرفوا لإيمانهم هذا سبباً ، وإما أنهم لا يعرفون على وجه الدقة ماذا الذى يجب أن يؤمنوا به . فما أقل أولئك الذين يبلغون حالة الإيمان القائم على أساس من الروية والتفكير المستقل الذى تهدينا إليه المعرفة الصحيحة وسط ما يساورنا من شكوك !

ومن المشاهد أن الناس فى أوقات التحمس الدينى الشديد قد يغيرون آراءهم الدينية ، على حين يستمسك كل واحد منهم بمبادئه القديمة فى الأوقات التى يزداد فيها التشكك العام بين الناس ويشتد . وهذا نفسه يحدث فى السياسة ، عندما تكون الصحافة حرة . ففى البلاد التى درست فيها كل نظريات العلوم السياسية ونوقشت الواحدة منها بعد الأخرى يستمسك الناس بالنظرية التى اختاروها منها ، لا لأنهم استوثقوا من صحتها ، بل لأنه ليس أمامهم نظرية أخرى خير منها .

وليس الناس فى عصرنا الحاضر مستعدين كل الاستعداد للتضحية بأنفسهم فى سبيل آرائهم ، ومع ذلك فمن النادر أن يميلوا إلى تغييرها . فلم يعد لدينا سوى عدد قليل من الشهداء ، ولم يتبق سوى القليل من الصابئين المرتدين .

وثم سبب آخر أقوى من هذا وأرجح . فعندما لا يجد الناس أمامهم آراء ثابتة أكيدة اتجهوا إلى الاستمساك بنزعاتهم الفطرية ومصالحهم المادية وحدها ، وهى ثابتة بالطبع ، وأمور محسوسة ودائمة ، أكثر من أى آراء فى العالم .

فأيهما أحسن حكماً : الديمقراطية أم الأرستقراطية ؟ تلك مسألة يصعب البت فيها كل الصعوبة ، ولكن مما لا شك فيه أن الديمقراطية تضايق قسماً من الجماعة ، وتظلم الأرستقراطية القسم الآخر . إنها لحقيقة قائمة بذاتها ، وواضحة لا تحتاج إلى جدل أو نقاش .. « أنت غنى وأنا فقير » .